القرآن والذائقة الشعرية

القسم الأول
2013/10/ 05

باسم المرعبي

كلّ لغة هي نثر وشعر، إلا اللغة العربية فهي نثر وشعر وقرآن[1]. تقرير كهذا يشير إلى أن القرآن حالة خاصة ومتفرّدة في عالم النص بالمطلق، من حيث هو نظام لغوي، وجوهر، لا يمكن الإحاطة به لما انطوى عليه من أسرار، على الصعيدين المتقدمين، أي الشكل وما تضمّنه. وإن كان القرآن، في الأصل، قد أُمليَ وحياً على النبي، ودون الخوض في مفهوم الوحي، هنا، للوحي كيفيات، وفقاً للسيوطي "في الإتقان في علوم القرآن"، إحداها أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس، والمراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يبين له أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد. الثانية أن ينفث في روعه الكلام نفثاً. الثالثة أن يأتيه في صورة الرجل فيكلمه. وإن كان الحديث هنا عن القرآن كمتحَقّق صوتي، لكنّه هو الكتاب النص المرئي، المجسّد بالحرف. الـ "مسطور": أي الـ "مكتوب" حسب القرطبي. تماهى في فرادته، صياغةً ومغزىً، فـ "ظاهره أنيق وباطنه عميق،لا تُحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه". كما في تفسير العياشي. ومهما قيل في القرآن من ثناء وأُبديَ من إعجاب فإنّ القول يبقى ناقصاً، لما له من آفاق تتسع وتتعدّد وأعماق، بالسبر، تزداد عمقاً. من هنا يتأتى دوره كنص محوري في تاريخ الثقافة العربية كما يصفه نصر حامد أبو زيد. وما قيل في الله جلّ وعلا انه لا يَشغلهُ شيءٌ عن شيء في تدبير شؤون الكون، كذلك القرآن، ولأنه لذات الصانع العظيم فلم يلهه شيء عن شيء. فإن كان معجزاً في البلاغة وسحرها، حدّ أن قال بعض العلماء في ذلك انّ بلاغته "كانت المؤثر الأول في إيمان الذين آمنوا..."، ما يستدعي عبارة أبي يعرب المرزوقي في كتابه، "في العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآني"، من انّ "الموقف من القرآن موقف ادراك الإعجاز". لكن رغم ذلك فهو لم يغفل القصص والتاريخ، وإن كان كتاب تشريع فذلك لم يمنعه أن يتناول ما يُحيل الى الجغرافيا والفلك، مثلاً. وهو كتاب ماضٍ وحاضر، وبالقطع، هو كتاب مستقبل، وما بعد المستقبل، إن بمعنى ديمومته والحاجة له مادامت الحياة والعالم، إلا ما شاء الله، أو بمعنى الكشف عما ينطوي عليه قادمُ الغيب في عالمنا هذا أو في العالم الأخروي. لقد عرفت عن القرآن نبوئيته في أكثر من موضع منه، سواء ما يخص حوادث دنيوية بعينها كانتصار الروم، أو واقعة فتح مكة، أو ما يتعلق بأخبار الحياة الآخرة كوصف الجنة والنار وحال كلا الفريقين من أصحابهما بل انّ لذكر بعض التفاصيل ما يبعث على الذهول

كتخاصم أهل النار.(إن ذلك لحق تخاصم أهل النار: ص:٦٤). أو وصف موقف الأعراف وما يدور من حوار ثمّة. وما من كتاب يستحق أن يوصف بالكوني سوى القرآن. والاستجابة للقرآن والانفعال به هو فعل شعري. "فيصبح فعل الشعر عين العبادة أو الشهادة بشهود واجب الوجود". كما يعبّر المرزوقي.
وإذا كان الكلام، يختص بما هو أدبي، لغوي، وإلا فإنه لكتاب (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله:الزمر). ولتكاد تستوي قشعريرة الإيمان والشعر لدى الحواس المتداركة بالتشذيب حدّ الإلهام، إذا ما نُظر الى الشعر كمعطى من علم ونبوءة.
والقرآن شكّل ولا يزال يشكّل صدمة على صعيد البناء والأداء اللغوي ـ البياني، بالقياس الى ما متعارف عليه من أساليب "التأليف" و"الكتابة" وهما مصطلحان لا يمكن، وصف حالة القرآن بهما، فهو لا خالق ولا مخلوق ولكنه كلام الخالق، كما يعرّفه الأمام جعفر بن محمد الصادق. ناهيك عن مصطلحاته وتسمياته الخاصة به مثل الآية والسورة وقبل أيّ شيء العنوان أو الاسم الجامع لكلّ ذلك الذي لم تعرفه العربية من قبل ألا وهو القرآن، وهناك أكثر من رأي في تسميته بالقرآن كما يوردها لسان العرب في مادة: قرأ، منها، ما يفيد معنى الجمع،لأَنه يجمع السُّوَر، فيَضُمُّها. أو ما يفيد القراءة: قَرَأْتُ الكتابَ قِراءة وقُرْآناً، ومنه سمي القرآن. أما الإمام الشافعي فيرى ان:القُران اسم، وليس بمهموز، ولم يُؤْخذ من قَرَأْت، ولكنَّه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإِنجيل.

2

(قل أوحيَ اليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً: الجن:1).
يصف النبي محمد (ص) وفي رواية اخرى يُنسب هذا الوصف للإمام علي، القرآن بالقول:"فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحُكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل(.....) "ولا يخلق(لا يبلى) على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه...". وواحدة من عجائب القرآن التي لم يعرفها أي كتاب على امتداد هذا التاريخ من الحبر، ما يُعرف بخاصية الوقف اللازم أو الواجب، فعند العلامة التي تحتّم التوقف التي يُرمز لها عادة في المصاحف بالحرف مـ، ومن ثم استئناف القراءة تتجسّد أُعجوبة من أعاجيب الكلمة في ذات الجملة (الآية). كما سيتبيّن لنا في بعض الأمثلة. و"الوقف اللازم هو نوع من الوقف التام، وقد عرّفه الإمام السجاوندي (محمد بن طيفور الغزنوي) بقوله: هو ما قد يوهم خلاف المراد إذا وصل بما بعده. وقال نظام الدين النيسابوري: هو ما لو وصل طرفاه غيّر المرام وشنّع الكلام". اما أبو حاتم السجستاني فقال: "من لم يعرف الوقف لم يعلم القرآن". وكمثال على ما تقدّم، الآية ٦٥ من سورة يونس:(فلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ مـ إنّ العزّةَ لله جَميعاً).فالوقف هنا واجب، أي على "فلا يحزنك قولهم"، لئلا يتوهم انّ ما بعده من قولهم(أي المشركين) بل هو ابتداء من قول الله تعالى. (السجاوندي: "الوقف والابتداء").أو كما في الآية التالية، (انما يَستَجِيبُ الَّذينَ يَسمَعُونَ مـ والمَوتَى يَبعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ اليهِ يُرجَعُونَ: الأنعام:

٦). تكون علامة لزوم الوقف، هنا، على "يسمعون" وضروة ذلك واضحة من ظاهر الآية، دون الخوض في تفاصيل التفاسير الكثيرة لذلك.

والقرآن بحر محيط، وكما انّ عالم البحار لم يُكتشف منه بعد سوى ثلاثين بالمائة كما يقول المتخصصون فإن القرآن ويما ضُمّن من أسرار حتى لو اقتصرنا على ما هو لغوي ـ مجازي، لبقيت له نسبته الكبيرة من ذلك، مثال ذلك الحروف في أوائل السور فما من تفسير يقيني لها وقد تعددت الأقوال و"الاجتهادات" في الغاية أو المراد منها حدّ بلوغ المدى "الشعري" في مقاربتها كما عند، ابن عباس وابن عربي و روزبهان الشيرازي، مثلاً، صاحب "عرائس البيان في حقائق القرآن"، فالأخير يقول في (الم): الألف اشارة الى وحدانية الذات واللام اشارة الى أزلية الصفات والميم اشارة الى ملكه في اظهار الآيات، بالألف أخبر عن فردانية الذات وباللام أخبر عن سرمدية الصفات. وفي مضمار الحرف ذاته يقول في اسم "الله" لامان: الأولى اشارة الى الجمال، والثانية: اشارة الى الجلال، و"الهاء" الى هويته، وهويته لا يعرفها إلا هو. ولا تقتصر الحيرة على ما يخص حروف أوائل السور فقط، فهاهي كتب التفاسير المتنوعة على كثرتها بقديمها وحديثها نجدها في كثير من الأحيان لا تتفق على تفسير واحد للآية الواحدة بل انّ عدم الاتفاق على معنىَ واحد يكون حتى للكلمة الواحدة ذاتها، غير غافلين في ذات الوقت عن التحرج الذي يبديه "العلماء" من التفسير بالرأي، فقد كان الأصمعي لايفسر شيئا من غريب القرآن، وسئل، مرةً، عن قوله: (شغفها حباً) فسكت وقال: هذا في القرآن. وقد سأل سعيد بن جبير"ابن عباس" عن قوله (وحناناً من لدنا) فلم يجب، وفي رواية أن ابن عباس قال: "لا والله ما أدري ما حناناً". وفي هذا المعنى يُنقل عن سعيد بن المسيّب انه "سُئل عن آية، فقال: لاأقول في القرآن شيئا". يعني لا يُفسّر برأيه، وهو ليس كما فهم أدونيس في "النص القرآني وفضاء الكتابة" من انّ اجابته هذه هي تعبير عن الدهش أمام القرآن. مع ان القرآن قمين بذلك.

القرآن والذائقة الشعرية

القسم الثاني
2013/10/06

باسم المرعبي

وقد يعترض قائل، لمَ كلّ هذا التصعّب في فهم القرآن وتحصيل معانيه ولمَ يلفه الغموض في كثير

منه، لا سيما ان الإنسان مسؤول عن العمل والأخذ به؟ ويجيب على هذا التساؤل أو الاعتراض ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن" بقوله: ان القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني(....). ولوكان القرآن كله ظاهراً مكشوفا يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر، ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة".

وان "هذا الغموض نفسه لون من ألوان البلاغة لأنه حافز للعالم على البحث والتنقيب، ثم ارتياد الآفاق وراء المعاني". كما في تأكيد د. زغلول سلام في "أثر القرآن في تطور النقد الأدبي...". ربما من هنا يتأتّى فهم قول الإمام علي لو ثنيت لي الوسادة لذكرت في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم حمل بعير، وفقاً لابن سبط الجوزي، في "تذكرة الخواص"، وهذا القول لا يفترق عن الذي ذكره السيوطي من "أن أحرف القرآن في اللوح المحفوظ وأن تحت كل حرف منها معان لا يحيط بها إلا الله".

3

انّ كلّ ما في القرآن يدعو للعجب. وأولى الناس بأن يؤخَذوا به هم الشعراء والأدباء فهم الأقرب، أو هكذا ينبغي، إلى استشعار ما ينطوي عليه القرآن من إعجاز حق مادته اللغة، إذا ما قصرنا الحديث هنا على الإعجاز البياني، فحسب. يقول البيهقي بصدد ذلك في "دلائل النبوّة": أنه أعجب في الآية وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

ان مراجعة سريعة إلى عناوين المصنّفات التي تختص فقط بلغة القرآن، غريباً ونحواً وإعراباً ومفردات ومصطلحات ومرادفات وما صُنّف من معاجم وقواميس وفهارس على اختلاف اختصاصاتها، وغير ذلك مما لم يُتح الإلمام به من كتب بمختلفها، وهي على سعتها وتنوعها وكثرتها حدّ لا يمكن الاحاطة بها جميعاً، هذه المراجعة، تبيّن مقدار الثراء وعدم إمكانية استنفاد مصادر الإعجاب في هذا الكتاب الفريد. في "قاموس القرآن" والذي يُسمّى أيضاً "الوجوه والنظائر" للدامغاني. "وعلم الوجوه والنظائر هو من فروع علم التفسير ومعناه أن تكون الكلمة الواحدة ذكرت في مواضع من القرآن بلفظ واحد وحركة واحدة، وأُريد بها في كلّ مكان معنى غير الآخر". (د. عربي عبد الحميد علي). في هذا القاموس تبلغ، أحياناً، الكلمة الواحدة ستة عشر بل حتى عشرين معنى مختلفاً حسب الموضع أو السياق الذي تكون فيه. كما في كلمة "الاتيان"، مثلاً، فمن معانيها في القرآن: الدنو، الإصابة، القلع، العذاب، العمل، الخلق، المجيء، الظهور، الدخول، المفاجأة، وغير ذلك. وإزاء هذا الثراء والعمق الذي لا يمكن أن يُسبر ما يجعل الكلام معطلاً وحائراً أمامه، ولعلّ قول الإمام الصادق، يفسّر شيئاً من ذلك، إن لم يكن قد ذهب أبعد: "ليس شيء أبعد من عقول الرجال منه، ان الآية لتنزل

أولها في شيء وأوسطها في شيء، وآخرها في شيء، وهو كلام متصل يتصرف على وجوه". ويذكر الراغب الأصفهاني في كتابه "المفردات في غريب القرآن": "ألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها هو كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة".

إذاً هو "القرآن العجب" و"الكلمات التي لا تنفد" (ولو انّ مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله: لقمان:27). والصلة قائمة، متجددة ومتجذرة بين الشعر والقرآن، إن لجهة اسقاط الذائقة الشعرية أو الأدبية عموماً عليه والنفاذ إليه من خلال ذلك، فالبيئة العربية كانت بيئة فصاحة وبلاغة وبيان، أُفقها الشعر، وهو ما تفيده "شهادة" الوليد بن المغيرة وهو أحد سادة قريش، عندما سمع القرآن أول مرة، إذ قال: والله مافيكم من رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولابقصيده ولا بأشعار الجن مني، والله مايشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة". أو لجهة الاستعانة بالشعر على تفسير وفهم غريب القرآن بشكل خاص كما في قول الخليفة عمر، إثر موقف في هذا الصدد، إذ كان على المنبر فقرأ: (أو يأخذهم على تخوّف: النحل:47). فسأل عن معنى التخوّف، فقام رجل من هذيل، فقال، التخوّف عندنا التنقّص.

قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم. قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقَّص السير سنامها بعد تَمْكِه واكتنازه:

تخوّف الرحل منها تامكاً قَرِداً

كما تخوفَ عود النبعة السفَنُ"[2]

فقال عمر"أيها الناس: "تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم فإن فيه تفسير كتابكم". "تفسير الآلوسي". ويضيء، صاحب "الميزان في تفسير القرآن"، محمد حسين الطباطبائي على الآية المذكورة بتفسيره الذي ذهب فيه الى التخوف بمعنى التنقص، الى جانب تفسيرين آخرين، لذات الآية: "بأن يأخذهم الله بنقص النعم واحدة بعد واحدة تدريجياً..". وحين أُخذ على ابن عباس احتجاجه بالشعر على القرآن ردّ على منتقديه قائلاً، "وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن، بل أردنا تبيّن الحرف الغريب من القرآن بالشعر". "مسائل نافع بن الأزرق ملحق كتاب معجم غريب القرآن لابن عباس لـ محمد فؤاد عبد الباقي". وكان يقول، "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإنّ الشعر ديوان العرب".

يمكن القول انّ الفضاء الجمالي الذي هيّأه الشعر قبل الإسلام كان له الأثر البالغ في تلقي الكتاب الجديد في مادته ومذهبه ألا وهو القرآن، لغةً ومجازاً وبلاغةً وصوغاً وهي الأبواب الأولى التي ينفذ

منها متلقو القرآن إلى روح وجوهر هذا الكتاب الكريم، كما وصفه الله، الذي لا يُلامَس بالفكر وحده بل بالقلب بالضرورة. وأخيراً، مامن "كتاب" قد أعلن تحديه، في أن يأتي أحد بمثله كما القرآن، وفي أكثر من موضع منه: (قل فَأْتوا بسورة مثله: يونس:38). (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً: الإسراء: 88).(فليأتوا بحديث مثله: الطور:34) وما ذلك إلا لأنّ "القرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لايشبه كلام الخلق لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله"، كما يعلل البغوي في تفسيره. ومن أسمائه: الكتاب، كلام الله، الروح، التنزيل، الأمر، القول. وهو المجيد، الحكيم، الصدق، الحق، المبارك، العجب، البشير، النذير، أحسن الحديث، البصائر والبيان. ولم يُتفق على عدد أسماء القرآن فقد ذكر الزركشي في "البرهان في علوم القرآن" خمسة وخمسين اسماً وذكر الفيروز آبادي في "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز"ثلاثة وتسعين اسماً وكما يقول الفيروز آبادي: "ان كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى". بهذا يكون القرآن أفقاً لا يُستنفد بالقراءة ووجهةً لا تُبلغ بالقصد أو الطلب. ولأنه الكتاب الإستثنائي، اللا نهائي الذي أرّق حلم بورخس، بالكتاب المطلق، ولأنه لا يُدانى فأنّ من شروط حضوره أو كماله هو"غيابه"، ما يُعزّز ويثبت الإنطباع عن اطلاقيته وعجائبيته، بالفهم الشعري. فقد روي عن عبدالله بن مسعود انه قال: "ليسرَينّ على القرآن ذات ليلة فلا يُترك آية في مصحف ولا في قلب أحد إلا رُفعت". ثم قرأ: (ولئن شئنا لَنَذْهَبَنَّ بالذي أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلاً: الإسراء: 86). وكأنّ "غياب" القرآن، هذا ـ حين وقوعه ـ تتويج لرسالته ومهمته. وإشارة إلى ترفّع عن المكوث في بيئة يفسد فيها القلب والعقل عن آخرهما، فلا يعود بوسعهما استقبال نور

كنور القرآن والذي يستلزم بدوره بِساطاً من نور تتهيّأ به النفوس له.

الهوامش:

[1] محمد عزة دروزة: القرآن المجيد تنزيله وأسلوبه وأثره وجمعه وترتيبه وقرآته ورسمه ومحكمه ومتشابهه وقصصه وغيبياته وتعليقات على مناهج مفسريه والطريقة المثلى لفهمه وتفسيره. منشورات المكتبة العصرية. د. تاريخ.

[2] شرح غامض بيت الشعر: تمك السنام: طال وارتفع. القرِد: المتراكم بعض لحمه فوق بعض. النبعة: شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسي (جمع قوس). السَفَن: القشر.

*شاعر عراقي مقيم في السويد/ عن صحيفة الصباح العراقية